الرواية العربية وسلطة المنهج

الدكتور إسماعيل إسماعيلي علوي - المغرب

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - وجدة

لقد أصبح للرواية شأن كبير في زمننا هذا. وقد اهتم بها الخطاب النقدي الحديث اهتماما خاصا، وعالجها من خلال مجموعة من المناهج للكشف عن عوالمها التخييلية والواقعية. واستطاعت الرواية العربية أن تنال حظا من التطور الحاصل في هذا المجال. وكان ذلك من خلال الاحتكاك بالكتب والدراسات والأبحاث التي تخوض في مجال الرواية ومناهجها.

ومن ضمن ما يثير الانتباه والتساؤل الاهتمام بالمنهج في معالجة الرواية، وما يترتب عن ذلك من تطوير المفاهيم والمصطلحات، وما ينتج عنه من إغناء الحقل الروائي، ثم ما يعقب ذلك من إشكاليات وأسئلة.

وقد تنبه كثير من الدارسين إلى أهمية المنهج حيث اعتبرت «قضية المنهج في طليعة اهتمامات الدارسين والنقاد العرب، إذ يرونها حجر الزاوية لتجاوز الأزمة التي يعانيها الفكر، وكذا تخطي الواقع في شتى مظاهر معاناته»[1].

والاهتمام بالمنهج سواء في مفهومه العام أم في مفهومه الخاص له أهمية خاصة بالنسبة إلينا، وجدير بنا أن نبحث في مضماره. وما دمنا بصدد الحديث عن سلطة المنهج في الرواية العربية فإننا من دون شك سنكون في فناء الخطاب المنهجي الغربي باعتبار احتضانه للرواية وللمناهج النقدية على حد سواء، وتطويره لها في مستويات عدة.

---

(١) عباس الجراري «خطاب المنهج»، منشورات النادي الجراري (٨)، الهلال العربية، الرباط، ط٢، رجب ١٤١٦هـ / دجنبر ١٩٩٥م، المقدمة، ص ٥.

وعندما ننظر في الخطاب النقدي العربي الحديث نجد أنه قد تعامل مع كثير من المناهج النقدية الغربية، واستطاع أن يقدمها(•) للقارئ العربي وصفا وتطبيقا، بل ونقدا لها أحيانا.

وقد كان لمجهود النقاد أثر طيب في تطوير الرواية العربية وجعلها على صلة بما يستجد في هذا العالم من مصطلحات ومفاهيم إجرائية. ويبرز مجهود النقاد العرب في أنهم استطاعوا أن ينقلوا لنا عالم تلك المناهج برغم البعد الزمني الذي يفصلنا عن إنتاجها، إضافة إلى محاولة تكييفها مع الرواية عندنا.

ولكن بقدر هذه الإيجابيات تظهر سلبيات عدة في هذا المنحى حيث إن تطبيق تلك المناهج على الرواية العربية جعلها تعالج وفق منظومة فكرية وجمالية مخالفة في كثير من جوانبها عما يقوم عليه التصور النقدي عندنا. وكثيرا ما طرحت هذه النقطة للنقاش عند النقاد والمهتمين بعالم الرواية. وذلك لأهميتها ودلالاتها، بل إن الرواية نفسها بما هي عليه الآن ليست إلا نتاج الفكر الغربي، وأن تطورها ناتج عن دور المناهج في تقويمها وتوجيه خطاها. وقد قال د.أحمد بسام ساعي: «يجب أن نعترف إذن بأنه ليس هنالك قواعد «فنية» محددة لأسلوب القصة الإسلامية، نعم هناك قواعد «فكرية» على الكاتب أن يلتزم بها، ولكن عندما نتحدث عن الأسلوب أو القواعد الفنية فيجب أن ننسى كل شيء ونتجه إلى قواعد القصة الغربية، فالغرب هو الذي جعل من القصة فنا.»[1] وعندما نتحدث عن القصة فإننا من دون شك إزاء عالم الرواية التي سطر الغرب قواعدها الفنية، ونسج عوالمها الشكلية.

وقد حرص هؤلاء النقاد العرب على النظر إلى المناهج انطلاقا من تربتها وإطارها العام، إلا أنهم لم يبلغوا مستوى إنشاء رؤية منهجية تستجيب للرواية العربية، وتكشف عما تحمله من دلالات مميزة وإشارات حية.

• قام مجموعة من النقاد في المشرق والمغرب باعتماد مجموعة من المناهج منها التاريخي، والنفسي، والبنيوي، والبنيوي التكويني....

(١) انظر أعمال الملتقى الدولي الثالث للأدب الإسلامي.أحمد بسام ساعي، النقد التطبيقي بين النص والمنهج. الفن القصصي في الأدب الإسلامي ونقده، ط١، عام ٢٠٠٤، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء،المغرب، ص ٣٩٥.

ولا شك في أن المناهج التي نشأت لأجل رواية وأدب بعينه – كما هو الشأن في الرواية الغربية – لا تتلاءم كليا مع الجهة التي كانت مستقبِلة، ومستوردة لتلك المناهج قصد النظر والتحليل. كما هو حال الرواية عندنا.

والآن أين تتمثل سلطة المنهج في الرواية العربية؟

لا بد في هذا المضمار من النظر إلى السلطة من زاويتين، زاوية المناهج الغربية في حد ذاتها كما استوردناها، وزاوية تعاملنا معها وتبنينا لها وتطبيقها على المتن الروائي.

أما على المستوى الأول فإنه يتجلى في أن هذه المناهج النقدية الغربية ظلت تمثل سلطة من حيث إنها أولا جاءت من الآخر الذي نظن أنه متفوق علينا، قادر على وضع الصيغ والمصطلحات والمفاهيم ومستويات التحليل. كما أن سلطة تلك المناهج آتية من خلال المستوى العلمي الذي تشتمل عليه في كثير من جوانبها، وإن كان بعضها يتجاوز بعضا بعد حين من الزمن. وإلى جانب ذلك نذكر أن سلطتها جاءت أيضا من انطلاقها من فلسفات بعينها تعضد تلك المناهج وتسندها. وقد أشار كثير من النقاد إلى أن غياب هذا السند الفلسفي يعد نقصا وضعفا في مجال النقد الأدبي الذي لا بد أن يتأسس على رؤية فلسفية.

أما المستوى الثاني فيتمثل في كون الناقد المستقبل يحس بسلطته المعرفية والعلمية، حيث إنه استطاع أن يفتح نافذة على الغرب المتقدم في مجال المناهج. وكثيرا ما تتجلى تلك السلطة في القدرة على الترجمة والنفاذ إلى عمق تلك المناهج ومعرفة أصولها الفلسفية، زيادة على قدرته على التواصل مع المتن الروائي العربي ومعرفة كثير من خباياه.

والحديث عن المناهج سواء عندنا أم عند الغربيين يعني السعي إلى امتلاك أرضية صلبة للتعامل مع الإبداع والمعرفة. إذ «من المؤكد أن الشيء الوحيد الذي يجمع سائر الدراسات النقدية الأوروبية المعاصرة هو سعيها للحصول على منهج؛ لأن هذا الأخير يعد الأرضية اللائقة التي ينطلق منها كل تأمل حول قيمة المعرفة.»[1] وهذا التوجه

(١) حسن المنيعي، «أزمة المنهج في النقد العربي (النقد المغربي نموذجا)»، الثقافة الجديدة، عدد١٠-١١، س١٩٧٨. ص ٦٦.

المنهجي نحو امتلاك المعرفة لامتلاك السلطة كان مما يقوي إشكالية المناهج، وفي هذا يقول محمد خرماش: «لعل شدة التهافت على مختلف العلوم الإنسانية أملا في التسلح بمعطياتها لمواجهة الظاهرة الأدبية مما يصعد إشكالية المناهج ويزيد من تشعبها.»(١).

ولما أصبح الناقد المستورد ذا سلطة منهجية، وقوة معرفية نشأ هنالك نمط من العلاقة بين الناقد والروائي وهي «علاقة متفوِّق مستجلب للمصطلحات والنظريات بمتنَفِّذٍ متدرب يفتقر إلى التقنية الناجعة المتطورة.»(٢) وهنا تظهر السلطة جلية عند الناقد.

ولما كان الأمر كذلك تجاسر بعض النقاد كثيرا في تناولهم للنصوص الروائية العربية. فإذا كان الناقد منطلقا من المناهج المادية وما يتفرع عنها غلب عليه البعد الأيديولوجي القاتل لنفسه وللمتن المقروء. وإذا كان بنيويا ظل يحوم حول بنية مغلقة لا تعترف بما يشارك في إنتاج النص الروائي. وإذا كان يعتمد منهجا نفسيا، فإن سلطته تتجلى في وسم هذا العمل أو ذاك بمجموعة من المصطلحات كان أكثرها مضللا للمتلقي الذي يكوّن لنفسه صورة عن هذا العمل أو ذاك دون أن يجرؤ على تجاوز تلك الصورة إلا بعد أن تظهر مواطن ضعف هذا المنهج.

وتتمثل تلك السلطة بالإضافة إلى ما ذكر في أن التعامل مع هذا المنهج أو ذاك غالبا ما يأتي في فترة زمنية واحدة ويشكل -من خلال مُتبنيه- سلطة تبلغ أحيانا حد خنق كثير من الأعمال التي لا تتماشى مع هذا المنهج. ولنا فيما كان للمنهج التاريخي والاجتماعي والبنيوي والنفسي ما يدل على ذلك.

وقد أدى هذا إلى أن بعض النقاد أصبحوا يكيفون النصوص حسب ما تأمر به تلك المناهج. ويصلون إلى نتائج وأحكام تغدو بدورها سلطة أمام المبدع والقارئ على حد سواء. وإذا كان الأمر كذلك فأي خير يرجى من وراء سلطة المناهج إذا كان دورها يقف

(١) محمد خرماش،" إشكالية المناهج في النقد الأدبي المغربي المعاصر -٣- البنيوية التكوينية بين النظر والتطبيق"مطبعة آنفو – برانت، فاس، ط١، ٢٠٠١، ص ٢٢٢

(٢) الرواية العربية واقع وآفاق، "مجموعة من الدارسين، محمد برادة، دار ابن رشد للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨١، ص ١٠

عند مستوى إلغاء نصوص بعينها والغضب على أخرى، وتقديم ثالثة بوصفها النموذج ما دامت تستجيب لمتطلبات المنهج؟

ولا أريد هنا أن أستشهد بما حدث لروايات عربية بعينها فهي كثيرة في المشرق والمغرب. وحسبي أن أقتصر على تبيان كيف أن تلك المناهج شكلت سلطة في عالم الرواية العربية. وهي تقوم أساسا على عناصر التفوق وامتلاك المعرفة، والسبق التاريخي، والقدرة على تفكيك النصوص.

ومما يدل على سلطة المنهج أن الخطابات النقدية أصبحت تولي اهتماما كبيرا للمناهج من حيث أصولها ومفاهيمها ومصطلحاتها قد يفوق الاهتمام بعالم الرواية. مما يؤثر سلبا على تقدم النظر في عالم الرواية، وإن كان يجلي لنا مكونات المناهج النقدية.

إن ما تجدر الإشارة إليه في البداية أن استيرادنا للمناهج وضعنا أمام عدة مشكلات وصعوبات تطرق إليه كثير من النقاد العرب، وهم على وعي تام بما يتصل بهذا الموضوع.

وإننا إذا نظرنا في مناهجنا النقدية الحديثة نجد أنها تطرح مشكلة وقضية من أهم القضايا التي تعرفها الساحة الأدبية، وترتبط أساسا بالمنهج. وذلك أن المنهج لا يتصل بالمؤلف فحسب، وإنما يتصل بالنص وبالمتلقي كذلك من حيث استقباله للكيفية التي تعالج بها القضايا والمسائل الأدبية؛ ومدى فعاليتها في تنظيم الأفكار والإقناع بها.

ونشير هنا إلى أن التصور والثقافة والحضارة والتكوين والذوق تتدخل كلها في عالم المنهج الذي يعكس بدوره المرجعية الفكرية لصاحبه. ومن هنا تكون للمنهج سلطة وأثر بالغ في الجانب التربوي والفكري والمعرفي والتصوري، سواء لدى الناقد نفسه أم لدى المتلقي الذي يتأثر سلبا وإيجابا بهذا المنهج أو ذاك. ولنتذكر ما فعلته بعض المناهج بعقول مجموعة من الناس وبعواطفهم.

ولا بد أن نشير هنا إلى إمكانية الاستفادة من المناهج في عدة مستويات، كأن نفتح الباب للنهل من هذا المنهج أو ذاك بما نراه ملائما لسياق ما كنا بصدده. ونجد من

النقاد المغاربة مثلا من لم يمنعه تعامله مع منهج ما أن يستفيد من أبعاد منهجية أخرى، ولهذا نجد حميد لحمداني يستفيد من الحوارية الباختينية[1] رغم تعامله مع البنيوية التكوينية.

وقد تعرضت المناهج الغربية – على أهميتها وسلطتها – لانتقادات كثيرة، بل إن بعضها قد قام على أعقاب بعض. وكذلك الأمر بالنسبة إلى المناهج النقدية عندنا حيث تعرضت للتقويم والانتقاد.

وفي هذا الإطار تم انتقاد المناهج في عالم السرد عامة. وهذا نص يتناول المناهج في القصة، فيقول: «منهجان إذن ينتجهما دارسو القصة: المنهج الأكاديمي الشكلي، والمنهج التحليلي. وعيب المنهج الأكاديمي الشكلي أنه يعتمد على النظر إلى المقررات الشكلية الخاصة بفن القصة، كالشخصية والحادث والبناء والصورة... وينتهي إلى إصدار حكمه بناء على هذه النظرة. وصحيح أن الشخصية والحادث والبناء والصورة عناصر قصصية، لكنها لا تكفي لصنع قصة في مستوى معين. والخطأ عادة يأتي من أننا نتصور أنه عندما نتكلم عن قوة التشخيص وروعة الحبكة عند مؤلف ما، أو عن موهبته السردية مثلا أننا نصدر أحكاما نقدية في حين أننا في الحقيقة لا نصنع أكثر من أننا نباشر المهارة التي أبداها المؤلف في هذا المجال. ومن أجل هذا أصبح من غير المجدي التعويل على هذا المنهج، وتقدم عليه المنهج التحليلي الذي يقف دون الحكم النقدي النهائي، وإن كان يرتاد بنا العمل الفني في جوهره.»[2].

إن هذا النص يبين لنا وجه النقص في المنهج الأكاديمي الشكلي، وهو الوقوف عند مستوى الشكل دون العبور إلى مستويات أخرى تتم بها العملية النقدية على وجه أكمل. ويشير هذا النص أيضا إلى أن التوصل إلى إصدار أحكام نقدية لا يستخلص من دائرة الجانب الشكلي فقط، وإنما يجب أن يكون هناك جانب تحليلي يراعي باقي العناصر الجمالية الأخرى. وهذا أمر يجب أن يستفيد منه المنهج الإسلامي الذي نهفو إليه حتى

---

(١) انظر مؤلف من أجل تحليل سوسيو بنائي للرواية (رواية المعلم علي نموذجا) ١٩٨٤.

(٢) عز الدين إسماعيل "روح العصر دراسات نقدية في الشعر والمسرح والقصة "دار الرائد العربي، بيروت، لبنان ١٩٧٨، ص ٣٥٢-٣٥٣

لا يركز على جانب دون آخر. وحتى يكسب سلطة حقيقية نافعة؛ لأننا إذا ملنا الميل كله لتناول الرواية أو الإبداع بصفة عامة من خلال جانب واحد، فسيكون ذلك مجلبة للجمود، ومطية للتجاوز.

وقد أدرك بعض النقاد خطر التركيز على تناول الجانب المضموني في العمل الإبداعي ونبهوا إلى ضرورة سبر أغوار النص من حيث البعد الفني. ولنا فيما وصل إليه المنهج - الذي يؤسس ذاته من خلال البعد الأيديولوجي فقط - ما يبين فشل كل منهج يدور في فلك المضامين وحدها.

وقد عبر كثير من النقاد عن هذا الأمر كما أشار إلى ذلك د.عماد الدين خليل بقوله: "إن معظم القراء والنقاد.. وهم يتعاملون مع هذه القصيدة أو القصة أو الرواية أو المسرحية... إلخ، يقفون عند المضامين، ولا يمنحون الخصائص الفنية والجمالية سوى هامش محدود، بل إنهم أحيانا يبخلون على القارئ حتى بهذا الهامش المحدود."[١] وهذا أمر لا يستقيم معه البحث، ولا يمكن لمنهج يستند إلى المضامين وحدها أن يقدم الكثير للأدب والنقد. وهذا ما يدفع إلى الاستفادة مما كتبه الشكلانيون الروس، وجيرار جنيت[•]،و«رولان بارت» وغيرهم ممن يولي أهمية للبعد الفني والتقني في العمل الإبداعي.

وفي الأخير نشير إلى أن السلطة الحقيقية التي نطمح إليها في المنهج هي أن يكون لنا منهج يستجيب لحاجياتنا الحضارية والفكرية والجمالية. وأن ينظر للرواية بعين تتنبه إلى ما يقوم عليه عالم الرواية من أبعاد فكرية وفنية.

ولا غرابة في أن يستفيد الناقد من كل ما من شأنه أن يخدم عالم الإبداع سواء الرواية أم غيرها لكن «هذه الاستفادة لا يمكن أن تتم بصورتها المرجوة بتركيب مجموعة أدوات من مناهج مختلفة، وتعليق لافتة إسلامية على واجهتها الخارجية. وإنما ينبغي أن تنبثق

(١) انظر أعمال الملتقى الدولي الثالث للأدب الإسلامي، عماد الدين خليل "حول إشكالية النقد التطبيقي لدى أدباء الإسلامية، ص١٥.

(•)انظر «Gérard Genette « frontiéres du récit in Communications 8 .(Editions du Seuil..1981

الأدوات المنهجية من محيط المنهج الإسلامي بأصوله وغاياته ومقتضياته المعرفية والجمالية، وخصوصيات البناء الجمالي في النص موضع المقاربة.»[1]

وقد عبر د.عماد الدين خليل عن هذا الأمر بقوله: «يجب ألا يضيع المنهج الذي نرجو قيامه في غمار المناهج الأخرى وهو يتعامل معها فيفقد ملامحه وشخصيته.»[2] وإذا استطعنا أن نقيم منهجا يراعي ما أشرنا إليه فإنه سيمارس آنذاك سلطة طبيعية بعيدة عن الإكراه والإقصاء والتجاوزات؛ لأنه يستمد قوته من ذاته. وهذا لا يعني أن ذلك المنهج لا يتطور، بل لا بد من أن يتطور، وأن يستشرف المستقبل بما يفيد المبدع والنص والمتلقي.

إننا من خلال ما أشرنا إليه نخلص إلى أن المنهج النقدي يمثل سلطة حقيقية في يد الناقد. لكن هذه السلطة يجب أن توجه لخدمة الرواية أو غيرها من الإبداع. ولن تكون هذه الخدمة في المستوى المطلوب دون تحقيق استقلال منهجي واضح يعتمد رؤية إسلامية تنفتح بقدر ما ينفعها على كل العلوم والمعارف لكي تستجيب لما تطرحه الرواية العربية والإسلامية عموما من هموم وإشكالات مضمونية وفنية.

(١) سيد سيد عبد الرازق، «المنهج الإسلامي في النقد الأدبي»، دار الفكر المعاصر، بيروت- دمشق، ط١، ٢٠٠٢، ص ١٨٣.

(٢) انظر أعمال الملتقى الدولي الثالث للأدب الإسلامي، د.عماد الدين خليل، ص١٥.